مجلة الدراسات الفلسطينية، المجلد 18، العدد 72 (خريف 2007)، ص 105

غلعاد عتسمون*

كيف فقدت إسرائيل مناعتها: دور الانتفاضة الفلسطينية في هزيمة الجيش الإسرائيلي في تموز/يوليو 2006**

يكشف غلعاد عتسمون – اعتماداً على مصادر بالعبرية لم تترجم إلى الإنكليزية بعد – كيف أدى النضال الفلسطيني المسلح إلى تحويل القوات الإسرائيلية المسلحة إلى قوة عاجزة فاسدة، الأمر الذي مكن حزب الله اللبناني من إلحاق الهزيمة بها، على الرغم من التفوق الإسرائيلي الشامل تكنولوجياً وعددياً.

*يعود منشأ هاجس نصرالله ("ديبوك") الذي أثر في صانعي القرار طوال الحرب (الثانية على لبنان) إلى بضعة أسباب، أهمها أن إسرائيل لطالما اعتبرت [القادة]*** العرب أشخاصاً بعينهم لا ممثلين لأنظمة سياسية. فالإشارة دوماً كانت إلى "الأسد" أو "عرفات" أو "نصرالله"، لا إلى الدول والمنظمات التي يمثلونها، حتى بين المحللين الإعلاميين والسياسيين. فالعالم العربي، في نظر صناع القرار [الإسرائيليين]***، وحتى في نظر وسائل الإعلام والرأي العام، يقوده أفراد لا أنظمة حكومية، وأفضل وسيلة للتأثير فيه هو، غالباً، إلقاء قنبلة في المكان الصحيح.*

عوفر شيلاه ويوآف ليمور، "أسرى في لبنان"
(مِسكال – يديعوت أحرونوت وحيمِد بوكس، 2007)، ص 95.

يميل الإسرائيليون إلى شخصنة الصراعات، وهم في ذلك ليسوا بمجددين ولا بمبتكرين، إنما سائرون على خطى التقليد التوراتي. فالرؤية اليهودية إلى العالم تختزل التاريخ والأخلاقيات إلى ثنائية جدلية مبتذلة. مثال لذلك: المعركة المصيرية بين داود "الخيّر" وجُليات "الشرير" التي تشخصن الصراع بين الإسرائيليين القدماء "الأخيار" وبين الفلستينيين**** "الأشرار". ومع أن هذه القصة التوراتية يمكن أن تحُمل على وجه أدبي، إلاّ إن المقلق هو ما يحمّله إياها الإسرائيليون المعاصرون من تشابهات مع الواقع المعاصر. فالطريق السريع إلى المنصب الحكومي في إسرائيل يمر عبر تنكُّب "دور القاتل". ومرة بعد أُخرى يهيب الإسرائيليون المعاصرون بالقتلة حملة الأوسمة الرفيعة أن [يسعوا لأن] يتولوا زمام حكمهم، وأن يقودوا جيشهم، ومن ثم يحتلون مقاعد وزارية. وهذا ما حدث بشكل واضح مع كل من شارون وبراك وموفاز وحالوتس وديختر وكثيرين غيرهم.

غير أن الإسرائيليين لا يتفردون بهذا. فالميل إلى شخصنة التاريخ وتشييئه معهود لدى اليهود. فالرايخ الثالث، في نظر العديد من اليهود، يُختزل بهتلر وغوبلز. كما يُختزل العداء للسامية، غالباً، بواغنر وماركس وأنغلز ولاينغر، وهكذا. والواضح أن الشخصنة تبسّط الواقع المحيط ومجرى التاريخ وتأويله. فبذهاب هتلر قد يزول الرايخ الثالث، وحَظْر واغنر قد ينسحب على العداء للسامية. هذا الميل إلى شخصنة الصراعات والأيديولوجيات والنظرة إلى العالم ينبثق من نظرة طفولية: ما لا تراه ليس موجوداً. كما أن هذا الميل يأتلف مع أنموذج "العين بالعين والسن بالسن" التوراتي. إلاّ إن هذا الميل ليس سوى نوع من خداع الذات. فهو يخلط بين المجرد والتشييء المبتذل، ويحمي أصحابه من أي نوع من التعامل العقلاني مع الأيديولوجيا والنقد أو التأمل الذاتي.

من الجلي أن التأويل الصهيوني إنما يتعامل مع العارض المحسوس، مع التجلي الأبسط للعداء المحيط به، لا مع لب المشكلة بالذات. لقد هُزم هتلر فعلاً، وأصبح اليهود أكثر من مقبولين في ألمانيا وأوروبا. ومع ذلك فإن شعبية الدولة اليهودية وأبناء إسرائيل في الشرق الأوسط، الآن، مماثلة لشعبية أجدادهم في أوروبا منذ ستة عقود. يبدو أن شخصنة الحرب العالمية الثانية والمحرقة أعمت الإسرائيليين وداعميهم عن استبطان المعنى الحقيقي للأوضاع والأحداث التي أدت إلى نكبتهم في الدرجة الأولى. فلو فهم الصهيونيون معنى المحرقة الحقيقي لكان في إمكان الإسرائيليين المعاصرين منع الدمار الذي قد يكون في انتظارهم في المستقبل. كذلك، قد يُحظَّر واغنر في إسرائيل، إلاّ إن الأوضاع التي دفعت بماركس ولاينغر وواغنر إلى أن يقولوا ما قالوه تبقى هي ذاتها. ويبدو الآن أن المتفاعلين نقدياً وسياسياً وأيديولوجياً مع إسرائيل والصهيونية والقبلية اليهودية والسياسات الوحشية غير الإنسانية، التي تنطوي عليها القومية اليهودية وتداعياتها السياسية والثقافية، هم في ازدياد عدداً وانتشاراً.

توخياً للحقيقة، لا تقتصر شخصنة الصراعات على الإسرائيليين. فبفضل المحافظين الجدد وتأثيرهم الهائل في الدوائر السياسية الأنغلو – أميركية، أصبحنا كلنا عرضة للمبالغة في تبسيط كل صراع غربي تقريباً وشخصنته. وكما يبدو فإن لكل حرب غربية حالية "وجهاً" ما. فـ "الحرب على الإرهاب" لها وجه أسامة بن لادن الملتحي، و"تحرير الشعب العراقي" المزعوم جعل وجه صدّام حسين يتصدر "لائحة الاغتيالات"، وضمن حرب المحافظين الجدد المتصهينة يتحول كل صراع أيديولوجي إلى مؤامرة "اغتيال هادفة" لشخص ما. وللتذكير، فقد سبق لأميركا وبريطانيا أن انخرطتا في حروب عقائدية وصراعات سياسية غير مشخصنة قبل أن يطلق المحافظون الجدد محاولتهم الناجحة لصهينتهما. فبريطانيا والولايات المتحدة الأميركية حاربتا بشجاعة ألمانيا الرايخ الثالث (لا هتلر وحده) واصطدمتا مع "الحمر" في حرب باردة (لا مع ستالين بذاته).

الواضح أن الواقع تغير. ففي عالم صاغه المحافظون الجدد يُختزل النظام السياسي إلى مطاردة توراتية تبسيطية لجُليات. نحن الأخيار، أبناء داود، نلاحق أبناء جُليات: صدّام وبن لادن والأسد وأحمدي نجاد.

الآن، بتنا نعرف عبثية هذه الفلسفة. فبقدر ما أخفقت إسرائيل في إلحاق الهزيمة بالمقاومة الفلسطينية عن طريق استهدافها كل قائد فلسطيني ناشئ بارز، وبقدر ما أخفقت في إلحاق الهزيمة بحزب الله بالطريقة ذاتها، فإن معارك أميركا وبريطانيا الإجرامية المتصهينة الحالية محكومة بالفشل. لقد مات صدّام وما زال العراق بكامل حقوله النفطية بعيد المنال. اختفى وجه بن لادن ومع ذلك فإن الحرب على الإرهاب لم تحقق شيئاً.

أتمنى أن يحسن العالم الغربي فهم أبعاد الهزيمة التي أُلحقت بإسرائيل وجماعات الضغط الداعمة لها. يجب أن نقول لا لعملاء الصهيونية، يجب أن نقول لا للمتربصين بجُليات.

تشريح لهزيمة نكراء

بعد مرور عام على هزيمة إسرائيل المذلة في لبنان، أجدني أتأمل في الإخفاق الإسرائيلي التام بعينَي محللَيْن عسكريَّيْن إسرائيليَّيْن شهيرَيْن، هما يوآف ليمور وعوفر شيلاه. ففي كتابهما الأخير المعنون "أسرى في لبنان" جمع الاثنان سجلاً مفصلاً لسلسلة الأحداث التي أدت إلى الحرب، بالإضافة إلى وقائع الحرب ذاتها والقوائم اللانهائية للإخفاقات الإسرائيلية العملانية والتكتيكية والاستراتيجية. ولا يقتصر ليمور وشيلاه في كتابهما على الجيش وقادته، بل يصوران، بمهارة، مجتمعاً ضلّ طريقه، مجتمعاً صار بالتدريج منفصماً عن واقعه وبيئته المحيطة به، مجتمعاً يواجه انهياراً أخلاقياً كاملاً، مجتمعاً يمتلك قيادَه قيادةٌ أنانية منغلقة على ذاتها سياسياً وعسكرياً.

لقد أخذت هزيمة إسرائيل العسكرية في لبنان سنة 2006 العالم على حين غرة. بدايةً، صُدمت إدارتا بوش وبلير اللتان كانتا سارعتا، بحماسة، إلى إعطاء إسرائيل الضوء الأخضر للقضاء على القيادة الشيعية اللبنانية، ناهيك عن تدمير البنى التحتية المدنية في لبنان. وتعدت الصدمة بوش وبلير إلى العالم العربي. ووجد القادة العرب المعتدلون أنفسهم يتابعون الصُوَر التلفزيونية لرجل دين مسلم فرد يتحدى الإسرائيليين. لقد انتصر العرب للمرة الأولى على الجيش الإسرائيلي على يد السيد حسن نصراللّه وعدد محدود من المقاتلين. ونصرهم هذا ترك إسرائيل أشتاتاً، إذ اضمحلت قوتها الردعية تماماً وأصبحت مادة برسم البحث التاريخي. القيادة الإسرائيلية صدمت بدورها: بعد شهر من الحرب استقال الجنرال أودي آدم، قائد الجبهة الشمالية لإسرائيل. ولم يُطل الوقت بدان حالوتس، رئيس الأركان الإسرائيلي، ليحذو حذوه. وأطيح بعمير بيرتس وزير الدفاع لمصلحة رئيس الحكومة الأسبق إيهود براك. من الواضح أن الإسرائيليين يعون حجم هزيمتهم في لبنان بالكامل، إلاّ إنهم لا يعرفون كيف يعالجون الضرر، فهم مغرمون بـ "الحياة الرغدة"، ومأخوذون بصورة التكنولوجيا والثروة.

لا أعلم إذا كان هذا الكتاب ["أسرى في لبنان"] سوف يترجم عن العبرية إلى لغات أُخرى. لكنني أعتبر قراءته ضرورة لكل مهتم بشؤون المنطقة. فهذا الكتاب يقدم لمحة عن المجتمع الإسرائيلي فيما يبدو أنه حالته النهائية المتخلخلة، إنما التدميرية. أمّا هؤلاء الأميركيون الذين ما زالوا يرعون آلة القتل الإسرائيلية برعونة منذ أربعة عقود، هؤلاء الذين ما زالوا يعتقدون أن إسرائيل "قوة عظمى إقليمية"، فيجدر بهم قراءة هذا السجل للجبن العسكري والاختلال السياسي العام.

ومع أن الكتاب لا يصرّح برسالته، إلاّ إنها واضحة. إسرائيل تتصرف كمعزل (غيتو) يهودي عنيف، مريض بجنون العظمة، مدفوع بحماسة إجرامية شاذة تمدها بالطاقة تكنولوجيا أميركية فتاكة. ووفق ما يكشفه ليمور وشيلاه فإن المدفعية الإسرائيلية أطلقت أكثر من 170.000 قذيفة، مع أن القتال انحصر في شريط ضيق من الأرض (الحدود الإسرائيلية جنوباً ونهر الليطاني شمالاً)، في حين أن مجموع القذائف التي أُطلقت في حرب 1973 لم

يتجاوز 53.000 قذيفة، علماً بأن الحرب كانت على جيشين رسميين قويين وعلى جبهتين شاسعتين. أمّا الأرقام المتعلقة بسلاح الجو فهي أكثر إذهالاً. لقد قامت القوات الجوية بأكثر من 17.550 مهمة قتالية، أي بمعدل 520 مهمة في اليوم قياساً بـ 605 مهمات في حرب 1973 مع أن الأهداف الملموسة التي توفرت للاستخبارات العسكرية الإسرائيلية كانت قليلة. هذا، مع العلم بأن سلاح الجو في حرب 1973 كان يقاتل قوتين جويتين جيدتي التسليح، وقد خاض ضدهما معارك جوية ليست بالقليلة، ومواجهات ضارية ضد أحدث صواريخ الأرض – جو الروسية الصنع. وهذا ما لم يحدث في الحرب الثانية على لبنان. فقد انشغل سلاح الجو الإسرائيلي بضرب الأرض اللبنانية، قاصفاً وقاذفاً بكل ما بين يديه، حرفياً، بطريقة لا تعرف الرحمة، يشبه أثرها في بعض المناطق (جنوب بيروت، على سبيل المثال) أثر القصف الأنغلو – أميركي الشامل الشائن لألمانيا في أربعينيات القرن الماضي.

لماذا تصرف الإسرائيليون بهذه القسوة تجاه حادث حدودي محلي؟ لماذا فقد الإسرائيليون، ساسةً وقادةً عسكريين، قدرتهم على توظيف الاعتبارات الاستراتيجية والتكتيكية بشكل سليم؟ لماذا فشلوا جميعاً في تحديد أهداف عسكرية قابلة للتحقيق، الأمر الذي كان من شأنه أن يعطي حربهم إطاراً زمنياً وشكلاً ومبرراً؟ باختصار: لماذا ضل الإسرائيليون طريقهم؟ هذه مسألة حاسمة فعلاً. ومع أن ليمور وشيلاه يستنكفان عن طرح هذه الأسئلة، إلاّ إن كتابهما ينطوي على بعض الإجابات عنها، وسأحاول تلخيص بعض نقاطها.

الجانب العسكري

لنبدأ بالجيش. لقد خضع الجيش الإسرائيلي لتحول جاد في العقود الأربعة الأخيرة. في الأعوام التي تلت اجتياح 1967 السريع، كان ضباط القوات البرية، وخصوصاً قادة ألوية الدبابات، هم الذين تسنموا قيادة الجيش. بعد سنة 1967 آمنت إسرائيل بالحرب الخاطفة، وعمادها الانقضاض الهجومي الذي يفعّل تشكيلات واسعة من القوات البرية بالتلازم مع دعم جوي. بعد حرب 1973، ونتيجة النجاح المحدود للقوات البرية ووحدات الدبابات، تغير هذا التوجه. وبالتدريج تسلم المراكز القيادية العليا قدامى الوحدات الإسرائيلية الخاصة، وأشهرهم إيهود براك. كان براك، الضابط الحائز أعلى الأوسمة، قد ختم مهنته العسكرية قائداً لأركان القوات المسلحة. وفي أثناء قيادته الأركان عيّن مرؤوسيه السابقين في مناصب رفيعة في القيادة الإسرائيلية العليا، في حين رُكن ضباط القوات البرية جانباً.

هذا التحول داخل الجيش الإسرائيلي كان وراءه دافعان: الأول، الافتراض الاستخباراتي أن ما من دولة عربية واحدة تفكر في حرب شاملة ضد إسرائيل في المستقبل المنظور؛ والثاني أن الجيش الإسرائيلي منذ الانتفاضة الأولى وظهور المقاومة الفلسطينية المدنية، وجد نفسه يتعاطى المزيد والمزيد من العمليات ذات الطابع البوليسي. ضمن هذا التبدل لم يعد من كثير حاجة إلى تدريبات برية مكثفة. وبدت ألوية الدبابات والمدفعية غير ذات فائدة، وغير ذات صلة بحاجات الدولة اليهودية الدفاعية المستجدة. وفُرزت وحدات قتالية واسعة لمهمات ضبط الأمن في الضفة الغربية وغزة. ضمن هذا السيناريو المتغير تسنم قادة الوحدات الخاصة الإسرائيلية والقادة الأمنيون قيادة ما تصور الإسرائيليون أنه "الحرب على الإرهاب"، بدايةً. وتبعاً لذلك تسرب المزيد والمزيد من قدامى المغاوير إلى القيادة العليا للقوات المسلحة، ومن ثم إلى الحياة السياسية الإسرائيلية المعسكرة إلى درجة كبيرة.

لكن الأمور لم تقف عند هذا الحد؛ فلم يطل الوقت بالوحدات الإسرائيلية الخاصة قبل أن يتضح فشلها في توفير حلول لما بدا أنه مقاومة فلسطينية مدنية متنامية باستمرار. وبدا إرسال نخبة الأمة اليهودية إلى غزة في ساعات الصباح الأولى أمراً محفوفاً بالمخاطر الداهمة. ويجدر القول إنه بقدر ما يحب الإسرائيليون رؤية شبانهم يُروّعون الفلسطينيين بقدر ما يمتعضون من رؤية "أبطالهم" المحبوبين ضحايا الكمائن وقتلاها.

لم يطل الوقت قبل أن يُعهد إلى سلاح الجو بالتعامل مع التحدي الفلسطيني. وباستخدام تكنولوجيا أميركية متطورة، عمدت مروحيات إف 16 والأباتشي العسكرية إلى إطلاق صواريخ موجهة ضد أهداف فلسطينية مدنية وعسكرية. الفلسفة كانت بسيطة: على سلاح الجو إبقاء الفلسطينيين في حالة هلع دائم. وهكذا أصبح سلاح الجو في العقد الأخير القوة الأولى في الحرب ضد فلسطين والشعب الفلسطيني وقيادته الإسلامية الحالية. وسرعان ما طور سلاح الجو تكتيكاً أُطلق عليه اسم "الاغتيال الهادف". ولا يتطلب هذا المبدأ الإسرائيلي العسكري الجديد سوى بعض المعلومات الاستخباراتية على الأرض، تتبعها طائرة إسرائيلية واحدة تطلق صاروخاً أميركياً موجّهاً على مدينة غزة المكتظة بالسكان. كانت الإنجازات واضحة. في حالات كثيرة تم اغتيال الفلسطينيين المستهدفين، إنما في حالات أُخرى سقط إلى جانبهم مدنيون أبرياء صودف وجودهم في الجوار. ذنب هؤلاء التعساء أنهم كانوا في

المكان الخطأ في الزمن الخطأ. في حالات كثيرة أُخرى أخطأ الطيارون الهدف، أو أن معلوماتهم الاستخباراتية كانت مضللة. نتيجة ذلك لاقى كثيرون من المدنيين الفلسطينيين حتفهم، شيوخ ونساء وأطفال. ومن الواضح أن لا أحد في إسرائيل اكترث للأمر. عندما سُئل دان حالوتس، وكان وقتئذ قائد سلاح الجو، عمّا شعر به حيال إلقاء قنبلة أودت بحياة 14 مدنياً فلسطينياً، أجاب باقتضاب وبساطة: شعرت بهزة خفيفة في الجناح الأيسر [للطائرة]." حالوتس، الضابط الدموي، الرجل الذي أمر بقتل الكثير من الفلسطينيين، كان الشخص المناسب في المكان المناسب. ولم يطل الوقت قبل أن يُعهد إليه بتولي قيادة الجيش الإسرائيلي.

مع مرور الوقت امتنعت الحكومة الإسرائيلية من تعريض الجنود الإسرائيليين الشبان للخطر. وأصبحت "الحرب على الإرهاب" الإسرائيلية حرباً آمنة أقرب إلى أن تكون لعبة كومبيوتر. الشيخ ياسين، والدكتور الرنتيسي، وغيرهما العديد من المدنيين وقعوا ضحية هذا النوع من التكتيك الإجرامي. ويبدو أن القيادة العسكرية الإسرائيلية أُخذت بنجاح طريقتها الجديدة في القتل. لقد صار للشعب الإسرائيلي إله جديد هو "التفوق التكنولوجي". وأَلِفَتْ الدفعة الأخيرة من الجنرالات الإسرائيليين، ومعظمها من قدامى الطيارين والوحدات الخاصة، فكرة أن إسرائيل يمكن أن تحافظ على تفوقها الإقليمي باستثمار تفوقها التكنولوجي وقوتها النارية الهائلة.

وكما يكشف ليمور وشيلاه في كتابهما، فإن الجنود الإسرائيليين توقفوا، حرفياً، عن التدرب على أي نوع من العمليات التكتيكية الواسعة في العقد الأخير. فمن يحتاج إلى دبابات ومدفعية حين يكون في قدرة سلاح الجو الإسرائيلي أن يصيد الأعداء في أسرّتهم؟ وأعيد فرز طواقم الدبابات الشابة إلى مهمات أمنية بسيطة في الأراضي المحتلة بعد تدريبات أولية في حدها الأدنى. وهؤلاء الجنود لم يصبحوا غرباء عن مهماتهم العسكرية الأصلية في سلاح الدبابات والمدفعية فحسب، بل صاروا أيضاً غرباء عن أي نوع من المناورات التكتيكية العملانية. بكلام آخر: خسر الجيش الإسرائيلي جاهزيته للحرب.

وهكذا ربح الفلسطينيون فعلاً

يرى محللون كثر المقاومة الفلسطينية نضالاً مسلحاً عبثياً. ففي محصلة الأمر إن قيام بضعة فتيان برمي الحجارة لا يسبب ضرراً كبيراً. بعد قراءة ليمور وشيلاه يخلص القارئ إلى أن النضال الفلسطيني ليس عبثياً في الواقع. وفي الحقيقة، إن المقاومة الفلسطينية المدنية، تحديداً، هي التي أنهكت الجيش الإسرائيلي. إنها المقاومة الفلسطينية التي أدت بالجيش الإسرائيلي إلى حال من الشلل. إنها المقاومة الفلسطينية التي شتتت قوى الجيش الإسرائيلي البشرية وأوقفته عن التدرب لـ "الحرب المقبلة". إنهم الفلسطينيون الذين حولوا الجنود الإسرائيليين وقادتهم إلى عصبة من الجبناء يفضلون أن يربحوا الحروب قاعدين أمام شاشة كومبيوتر يحركون ذراع التحكم. إن الفلسطينيين هم الذين جردوا فعلاً القوى الإسرائيلية المسلحة من جاهزيتها للحرب بشكل مدمر.

وكما ذهب السيد حسن نصرالله في إحدى خطبه الأكثر حماسة، فإن إسرائيل كانت فعلاً تختبئ وراء التفوق التكنولوجي لتخفي جبنها وجهلها بما ينطوي عليه العيش في الشرق الأوسط (خطبة في بنت جبيل بعد الانسحاب الإسرائيلي). لقد أصبح الجيش الإسرائيلي معتاداً سحق المدنيين الفلسطينيين في بيوتهم، واغتيال قياداتهم الصاعدة. وترويع الحوامل على حواجز الطرق، وقصف الأطفال الصغار في مدارسهم، فالأمر كان في غاية السهولة. إلاّ إنه عندما طُلب إليه أن يتصدى لبعض المجموعات الميليشيوية الصغيرة المؤلفة من أفراد مدربين تدريباً بسيطاً لكنهم شديدو الحماسة، انهار بصورة مخزية؛ انهار على الرغم من تفوقه التكنولوجي؛ هُزم على الرغم من قوة نيرانه الهائلة، وعلى الرغم من دعم بوش وبلير المخجل؛ انهار لعدم أهليته وانعدام استعداده للقتال، لجهله كيف يقاتل، والأكثر إقلاقاً للإسرائيليين، لِمَ يقاتل.

بعد تطور النزاع في لبنان إلى حرب شاملة (على الأقل في نظر الإسرائيليين) سرعان ما تبين لمعظم الجنرالات الإسرائيليين أن جيشهم لا يملك الوسائل ليواجه انهمار صواريخ الكاتيوشا التي كان يطلقها حزب الله. وإذا كان الهدف الإسرائيلي، بدايةً، إيقاف صواريخ الكاتيوشا وإعادة جنديَي الاحتياط الأسيرَيْن، فقد تبين بُعد منال هذا الهدف. وسرعان ما فهم القائد الإسرائيلي أن التفوق في النيران والتكنولوجيا لا معنى له من دون معلومات استخباراتية نوعية ملائمة. والمضحك أنه في غضون أيام تبنت القيادة الإسرائيلية بعض مصطلحات ما بعد البنيوية (post-structuralist vocabulary). وبدلاً من أن تقدّم لشعب إسرائيل "نصراً" بسيطاً مباشراً، بدأت تستخدم مصطلح "حكاية نصر". وبعد أيام من إطلاق الحملة الإسرائيلية بدأت العسكريتاريا الإسرائيلية تتحدث عن

"صورة النصر" بدلاً من "النصر" بذاته. وبدأ شمعون بيرس يلغو بمصطلح "نظرة" نصر. وسواء أكان النصر "صورة" أم "نظرة" فالاثنان كانا بعيدي المنال.

الديمقراطية الوحيدة
في الشرق الأوسط

وكما برهن الجيش الإسرائيلي عن عدم فائدته فإن وضع الحكومة الإسرائيلية لم يكن أفضل. إيهود أولمرت رئيس الحكومة، الرجل الذي انتُخب لـ "الانسحاب" من الأراضي الفلسطينية لم يكن على كثير دراية بالشؤون العسكرية. والأدهى أن عمير بيرتس، زعيم حزب العمل، الرجل الذي عينه أولمرت وزيراً لدفاعه، كان يفتقر أيضاً إلى أي معرفة قيّمة بقضايا الدفاع. للمرة الأولى في تاريخها، سلّمت إسرائيل قيادها لسياسيَّيْن محترفَيْن يفتقران إلى أي خلفية عسكرية. قد يتوقع المرء أول وهلة أن من شأن هذا التحول الدرامي أن يليّن التيار الصقوري في النخب السياسية والعسكرية الإسرائيلية. عملياً، جرى العكس. ووجد بيرتس وأولمرت أنفسهما منجرَّيْن إلى صراع واسع النطاق من جانب رئيس الأركان المتعطش إلى الدماء، الذي كان يتلاعب بهما. ونظراً إلى افتقادهما الخبرة وحداثة عهدهما بالحكم، لم يكن لأولمرت وبيرتس أن يخرجا بحلول بديلة خلاّقة قد تتجنب الصراع وتحقق شيئاً. وبدلاً من كبح جماح الجيش وفسح المجال للدبلوماسية، ترك الاثنان حالوتس يقود البلد نحو تصعيد غير ضروري. وانتهى الأمر بالحكومة الإسرائيلية، جهلاً منها بالصورة الكاملة، إلى إعطاء حالوتس الوقت والدعم الكافيين لتحقيق أهداف كانت بعيدة المنال أساساً.

لكن، توخياً للحقيقة، لم يكن أولمرت وبيرتس الوحيدين في الحكومة، وإنما كانا محاطين بمحللين عسكريين وخبراء استخباراتيين وجنرالات سابقين وقدامى الجهاز الأمني. كان لأولمرت في احتياطه الحكومي الجنرال شاؤول موفاز، رئيس هيئة الأركان الأسبق، وهو رجل أمضى المرحلة الأخيرة من مهنته العسكرية يحارب حزب الله. وإلى جانبه كان آفي ديختر، وهو خبير قديم بالشؤون الأمنية مهمته التعليق على الاقتراحات العملانية للقوات المسلحة. وكان في الحكومة، أيضاً، بنيامين بن إليعيزر، قائد لواء احتياط وخبير بالشؤون اللبنانية للعقود الثلاثة الأخيرة، وشمعون بيرس نفسه الذي كان في السابق رئيساً للحكومة ووزيراً للدفاع. الجنرال الاحتياط عامي أيالون، وهو جنرال سابق في الجيش ورئيس سابق لجهاز الأمن الداخلي، عرض على بيرتس المساعدة. ومع ذلك لم يتمكن أحد من هؤلاء الخبراء المذكورين من تشكيل هيئة مقرِّرة. لا أحد من هؤلاء تمكن من تليين الاندفاع العسكري لحالوتس وأولمرت وبيرتس. وكورقة في مهب الريح بدت الحكومة الإسرائيلية يتلاعب بها الجنرالات، والرأي العام، فيما بعد، الذي تحول بشكل درامي ضد القيادة وتقصيرها.

بمرور الوقت، ومع انكشاف الفشل العسكري أمام الرأي العام، استقتل أولمرت وبيرتس وحالوتس في تغيير مجرى الحرب إنقاذاً لمستقبلهم المهني. ومع أنهم أيقنوا أن فرص إحراز النصر تتلاشى ساعة بعد ساعة، إلاّ إنهم كانوا مصممين على تقديم شيء للرأي العام يبدو كالنصر، أو الإنجاز على الأقل. وهذا هو سبيل البقاء السياسي في الديمقراطية الإسرائيلية على ما يظهر: يجب أن تقدم شيئاً يشبه النصر. وتحقيقاً لذلك، أمر بيرتس وحالوتس وأولمرت الجيش بالتدمير الشامل، مفترضين بذلك إرضاء الناخب الإسرائيلي. وقد استجابت قيادة القوات الإسرائيلية الجوية والمدفعية فوراً لهذا الطلب بوابل من القنابل العنقودية والصواريخ والقذائف التي انهمرت على الجنوب اللبناني بأكمله. وفي الساعات الثماني والأربعين الأخيرة قبل وقف إطلاق النار، أفرغت إسرائيل مخزونها الكامل من الذخائر، بحيث وصل، وفق شيلاه وليمور، إلى "الخط الأحمر".

وسعياً وراء إنقاذ المستقبل السياسي لأولمرت وبيرتس، قامت القوات الجوية الإسرائيلية بالمزيد والمزيد من العمليات الخطرة، إنما العبثية ومحدودة القيمة تكتيكياً. وقد فشلت هذه العمليات الواحدة تلو الأُخرى، ولم تحقق شيئاً، إلاّ إنها كشفت مكامن الضعف في القوات المسلحة الإسرائيلية. أظهرت جيشاً وقيادة سياسية في حال من الهلع. فقبيل الساعات الأخيرة للحرب وجد بعض المجموعات من الوحدات الإسرائيلية الخاصة ذاته معزولاً وجائعاً على امتداد الجبهة اللبنانية الجنوبية، محروماً من إمدادات الماء والغذاء. لقد تمكّنت بضع وحدات من مقاتلي حزب الله من تطويق نخب المغاوير الإسرائيلية. ويظهر أن لا أحد في إسرائيل تجرأ على المخاطرة بإرسال قوافل الإمداد إلى أرض المعركة. أمّا الأغذية والذخيرة التي أُلقيت من طائرات الشحن فقد وقعت في أيدي حزب الله. وفي بعض المناطق ظل الجرحى من مغاوير الجيش الإسرائيلي على أرض المعركة ساعات طويلة في انتظار وحدات الإنقاذ.

الهزيمة كانت شاملة. الإذلال كان هائلاً. لا لأن الجيش الإسرائيلي لم يتمكن من الدفاع عن إسرائيل فحسب، بل أيضاً لأنه فشل حتى في الدفاع عن نفسه.

ويورد شيلاه وليمور مزيداً من الحقائق المثيرة للاهتمام:

- قادة ألوية لم يحاربوا إلى جانب جنودهم، وإنما فضّلوا، عوضاً عن ذلك، إدارة المعركة من ملاجئ حصينة منعزلة داخل إسرائيل.
- حوامات مقاتلة لم يسمح لها بدخول المجال الجوي اللبناني تجنيباً لها خطر التعرض للنيران؛ ونتيجة ذلك تُرك المغاوير الإسرائيليون يقاتلون حزب الله قتال الند للند (من دون دعم جوي).
- ضابط برتبة مقدم رفض أن يقود جنوده إلى لبنان، معترفاً بافتقاره إلى المعرفة التكتيكية العملانية.
- جنود احتياط متوجهون إلى الجبهة من دون العتاد العسكري الكافي بسبب النقص الفادح في مخزون الطوارئ العسكرية، وانتهى الأمر ببعضهم إلى شراء الأعتدة اللازمة من مالهم الخاص.
- وهناك تفصيلات إضافية عن العملية التي قام بها دان حالوتس في سوق الأسهم في 12 تموز/يوليو. فقد تبين أنه هاتَفَ المصرف طالباً منه أن يبيع سنداته الاستثمارية مباشرة بعد معرفته بالاشتباكات في الشمال. وهذا قبل أن يأمر، بنفسه، بمزيد من التصعيد.

من الواضح أن الجيش الإسرائيلي "منفلش"، وغير مدرب كما يجب، وأخرق، وفوضوي، وقيادته فاسدة حتى العظم. أمّا القيادة الإسرائيلية السياسية فهي ليست أفضل حالاً. ومع أن بيرتس لم يعد وزيراً للدفاع، إلاّ إن أولمرت وموفاز وديختر، والآن براك – وكلهم أصحاب قتل جماعي بامتياز – ما زالوا متربعين في الحكومة. وأخذاً بوضع الجيش في الاعتبار، فإن على إسرائيل أن تعتمد تغييراً سريعاً في توجهها؛ فهي غير قادرة على أن تحارب بعد الآن، وهي تفتقر إلى القدرة على التحمل والمثابرة. لكن يبدو أن مثل هذا التغيير لن يحدث. ويبدو أننا في الانتخابات الإسرائيلية المقبلة سوف نرى، على الأرجح، بنيامين نتنياهو الخطيب المفوّه، إنما المولع بالقتال، في مواجهة إيهود براك المولع بالقتال، إنما غير المفوّه.

لأعوام، كنا نميل إلى الاعتقاد أن إسرائيل لن تهزم في ساحة المعركة. إلاّ إن تعرّفنا على أحداث الحرب الأخيرة بالتفصيل غيّر قناعتنا. الدولة اليهودية هزمت في المعركة، وقد تكررت هزيمتها في وقت أقرب مما نظن. ■

(14 آب/أغسطس 2007)

(*) موسيقي وكاتب مولود في إسرائيل، ومن دعاة الدولة الديمقراطية العلمانية حلاً للصراع الإسرائيلي – الفلسطيني.

(**) **المصدر:** http://www.redress.cc/palestine

ترجمة: سوسن الخولي.

(***) في الأصل.

(****) الاسم الذي يطلق على سكان فلسطين القدماء في التوراة. (المترجم)

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
http://www.palestine-studies.org/ar_index.aspx